وقعة نهر دجيل واحتلال المغول لمدينة بغداد

كانت المنطقة الغربية من بغداد الممتدة على الجانب الغربي من نهر دجلة تروى من مياه جدول كان يعرف باسم نهر دجيل . ونهر دجيل هذا كان يتفرع من الجانب الغربي لنهر دجلة في نقطة تقع شمال بلد الحالية بقليل فيسير موازياً لنهر دجلة حتى ينتهي إلى بغداد الغربية فيفنى هناك ، وكان القسم الذي يصل إلى منطقة بغداد يعرف باسم نهر بطاطيا . وكان هذا النهر من أهم الأنهر الرئيسة التي كانت تمد مدينة بغداد الغربية بالمياه السطحية ، فكان بعد أن يخترق « طسوج مسكن » ماراً بمدينة « مسكن » ينتهي الى « طسوج قطربل » ومنه إلى « محلة الحربية » في شمال مدينة بغداد الغربي . ويصف لنا ابن سرابيون المتوفى في حدود أواخر القرن الثالث الهجري جدول بطاطيا وفروعه المنتهية الى مدينة بغداد ، قال ما هذا نصه : « ومن أنهار الحربية نهر يحمل من دجيل يقال له نهر بطاطيا أو له من أسفل فوهة دجيل بستة فراسخ ، يمر فيسقى ضياعاً وقرى ويمر في وسط مسكن ، ويصب في الضياع ويفنى فيها . ويحمل منه نهر أسفل جسر بطاطيا بشيء يسير يجيء نحو مدينة السلام فيمر على عبارة مدرج قنطرة باب الأنبار ثم يدخل بغداد من هنالك فيمر في شارع باب الأنبار ويمر في شارع السكبش ويفنى هنالك » .

وقد قام نهر دجيل هذا بدور خطير في تقرير مصير معركة ٩ — ١٠ من المحرم من سنة ٦٥٦ هـ بين جيش هولاكو المغربي وجيش الخليفة المستعصم ، وهي جزء من المعركة الحاسمة التي غيرت مجرى تاريخ الخلافة العباسية ، وأدت الى استيلاء المغول على بغداد . وخلاصة الحادثة ، كما رواها مؤلف الحوادث والوزير رشيد الدين فضل الله الهمذاني هي أن هولاكو لما قرر غزو العاصمة العباسية أرسل قسماً من جيوشه الى أربيل على أن يعبروا نهر دجلة في الموصل ويسيروا

بمحاذاة ضفته الغربية حتى يصلوا إلى جهة بغداد الغربية[1] . وقد اتجه هذا الجيش بعد عبوره نهر دجلة فى الموصل نحو نهر دجيل فاخترق الجيش المنطقة الواقعة غربيه حتى وصل الى نهر عيسى الواقع فى ذنائب نهر السقلاوية الحالي ، فعسكر هناك ومن ثم وصل إلى محلة الحربيسة من شمال غربي بغداد (شمال غربي السكاظمية الحالية) فى نقطة تقع على بعد فرسخ واحد من قنطرة باب البصرة ، وهي القنطرة التي كانت تقع فى جوار موضع الجعيفر الحالية . وما إن تقدمت جيوش الخليفة لمقاتلة المغول حتى تظاهر المغول بالانكسار على وفق خطة مرسومة فتراجعوا إلى الشمال فى الأراضي السهلة الواقعة غربي نهر دجيل فتبعهم جيش الخليفة مدفوعاً بحرارة الانتصار الموهوم دون أن يلتفت إلى جناحه الأيمن الممتد حيال نهر دجيل شرقاً[2] . وهكذا استمر جيش المغول على التراجع وجيش الخليفة يتقدم الى الشمال وراءه ، وكلاهما يسير فى أراضٍ سهلة خالية من العوارض الطبيعية التي يمكن أن يحتمي بها جيش الخليفة فى حالة كرّ المغول عليهم ، فأدركهما الليل فعسكر جيش الخليفة فى موضع يقع في شمال النهر المسمّى « نهر بشير » من فروع نهر دجيل على بعد تسعة فراسخ من بغداد شمالاً . وقد وصف مؤلف الحوادث « نهر بشير » بقوله إنه « بئر دجيل »[3] . ووصف الوزير رشيد الدين فضل الله الهمذاني فى كتابه « جامع التواريخ » الموضع الذي عسكر فيه جيش الخليفة بقوله إنه « حيال الأنبار قرب قلعة المنصور تحت المزرفة على بعد تسعة فراسخ من بغداد » .

---

(١) نقلنا ما ذكره رشيد الدين فيما يختص بالموضع الذي عبر فيه الجيش المغولي نهر دجلة ، الا ان ابن الطقطقي خالفه في ذلك فقال ان عسكر هولاكو المتوجه الى غربي دجلة عبر نهر دجلة من تكريت وهو الامر المعقول وقد أيدت التواريخ العراقية هذا الاتجاه للجيش المغربي (راجع كتابه « الفخري » طبعة غريغزوك سنة ١٨٥٨ ص ٣٨٦) .

(٢) يستدل مما رواه مؤلف الحوادث عن هذه الواقعة ان الامير فتح الدين بن كز الذي كان يرافق الحملة قد أشار على قائد الجيوش ، وهو الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك ، بان يثبت مكانه ولا يتبع المغول فلم يصغ الى اشارته والظاهر أنه انضم الى المغول بعد ان رفضت نصيحته .

(٣) ذكر رشيد الدين الهمذاني هذه المنطقة فسماها « البشيرية » من نواحي دجيل .

ولقد تحرينا كثيراً في هذه المنطقة علنا نعثر على نهر قديم باسم « نهر بشير » في بزايز نهر دجيل ، ولكننا لم نجد لهذا الاسم أثراً ، ونميل الى اعتقاد أن النهر العتيق المتشعب من الضفة اليمنى لنهر دجيل بالقرب من التلول المعروفة اليوم باسم « تلول الناظري » الذي في الاراضي الواقعة بين النهرين ، دجلة والفرات ، متجهاً نحو بزايز نهر الصقلاوية الحالي ، هو من آثار « نهر بشير » الذي ذكره مؤلف الحوادث ، ويسير هذا النهر بموازاة النهر العتيق المعروف اليوم باسم « نهر مسعود » من الناحيـــة الشمالية متجهاً نحو الأراضي المنخفضة المعروفة اليوم باسم « أراضي الهورة » في جوار النهرين السكساوي والميساوية من فروع ذنائب نهر الصقلاوية الحالي . ويقع الموضع الذي عسكر فيه جيش الخليفة ، الذي وصفه رشيدالدين بأنه « حيال الأنبار قرب قلعـة المنصور على تسعة فراسخ من بغداد » في جوار التلول المعروفة اليوم باسم « قبور الياسري » وهي التلول الواقعة وسط أراضي الجزيرة الممتدة بين النهرين ، دجلة والفرات ، على مسافة نحو من أربعين كيلو متراً من شمال مدينة بغداد (راجع الخارطة المدرجة مع هذا البحث ، التي تبين مواقع المعركة بين جيش هولاكو وعساكر المستعصم في غربي بغداد) . ويتفق هذا الموضع مع وصف رشيد الدين الهمذاني حيث يقع حيال الأنبار ، كما أنه يقع بالقرب من التل المسمّى اليوم « تل المنصور » وهو حقيق بأن يكون موضع « قلعة المنصور » التي ذكرها رشيد الدين ، ويقع هذا التل بالقرب من موضع « الامام منصور » الحالي على مسافة نحو من أربعة كيلو مترات من جنوب غربي قرية الدجيل الحالية (سميكة) وعلى بعد زهاء اثني عشر كيلو متراً من شمال شرقي « قبور الياسري » .

ويظهر أن قواد الجيش العباسي باتوا ليلتهم تلك في هـذا الموضع تملأ بنشوة الانتصار الموهوم إذ لم يحسبوا حساباً لما كان يبيته لهم المغول من مكيدة لايقاعهم في الفخ ، فبينما كان جيش الخليفة مغتبطاً بما عدّه نصراً كبيراً كان الجيش المغولي يتهيأ للهجوم الذي رسمت خطته من قبل ، فقـام بسد نهر دجيل ليلاً وحولوا مياهـه كلها الى (نهر بشير) ففاض هذا النهر وغمر « أراضي الهورة » المنخفضة الواقعة وراء الجيش العباسي فقطعت عليه خط الرجوع ، فلما

باغته المغول بهجومهم المفاجيء، فنكص راجعاً الى بغداد ، فوجد نهر بشير قد فاض من الليل وملأ الصحراء « فحيرت الخيول عن سلوكه ووحلت فيه ، فلم يخلص منه إلاّ من كانت فرسه شديدة ، وألقى معظم العسكر أنفسهم فى دجلة فهلك منهم خلق كثير ودخل من نجا منهم بغداد مع الدويدار على أقبح صورة ، وتبعهم المغول يقتلون فيهم وغنموا سوادهم وكل ما كان معهم ، ونزلوا بالجانب الغربي [من بغداد] وقد خلا من أهله » . هذا ما قاله مؤلف الحوادث عن مصير هذه المعركة التاريخية التي مهّدت السبيل لهولاكو من الجهة الشرقية فى حصاره مدينة بغداد الشرقية حتى أتم احتلالها .

ومما ساعد على نمر الأراضي من وراء الجيش العباسي أن الموسم الذي وقع فيه هذا الحادث كان موسم فيضان ، إذ يوافق يوم الحادث (١٠ المحرم سنة ٦٥٦ هـ) ١٤ كانون الثاني سنة ١٢٥٨ م ويكون فى منتصف الموسم المذكور . ومن المعلوم أن هطول الامطار فى هذا الموسم يؤدي الى ارتفاع مناسيب مياه النهرين ، دجلة والفرات ، فيعرّض أرض الدلتا كلها لخطر الغرق إذا لم تتخذ تدابير واقية لدفع خطر الغمر عنها . وقد جاء فيما ذكره مؤلف الحوادث ما يؤيد أن الموسم الذي وقع فيه الحادث كان موسم أمطار ، إذ ذكر أن المغول لما احتلوا بغداد « قتلوا الرجال والنساء والصبيان والاطفال وكانت القتلى فى الدروب والاسواق كالتلول ، ووقعت الأمطار عليهم ووطئتهم الخيول فاستحالت صورهم » ، وأشار الى وجود الوحول فى الطرق بقوله أن « عدد القتلى زاد على ثمانمائة الف نفس عدا من ألقي من الاطفال فى الوحول » .

ومما قاله الرشيد الهمذاني في « جامع التواريخ » في هذا الصدد « إن عساكر المغول وصلت الى البشيرية من نواحي دجيل وكانت المياه كثيرة غزيرة فى تلك المواضع فكسر المغول سدود المياه حتى غمرت الأرض من وراء الجيش العباسي كلها ، وفى العاشر من المحرم فى طلوع الشمس هجم المغول على الجيش العباسي ، وقتل ابن كر وأمير معه اسمه قراسنقر ، وقتل من عسكر الخليفة

اثنا عشر ألفاً عدا المتورطين في الطين ونجا الدويدار مع جماعة قليلة من العسكر فدخلوا بغداد ».

وقد يكون من المفيد أن ندون هنا رواية ابن الطقطقي في كتابه « الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية » عن الواقعة المذكورة ، وكان معاصراً لها ؛ قال : « فحينئذ وقع الشروع في قصد بغداد وبث العساكر إليها . فتوجه عسكر كثيف من المغول والمقدم عليهم باجو الى تكريت ليعبروا من هنالك الى الجانب الغربي ويقصدوا بغداد من غربيها ويقصدها العسكر السلطاني من شرقيها . فلما عبر عسكر باجو من تكريت وانحدر الى أعمال بغداد أجفل الناس من دجيل والاسحاقي ونهر الملك ونهر عيسى ودخلوا الى المدينة بنسائهم وأولادهم حتى كان الرجل أو المرأة يقذف بنفسه في الماء ... فلما وصل العسكر السلطاني إلى دجيل وهو يزيد على ثلاثين ألف فارس خرج اليه عسكر الخليفة صحبة مقدم الجيوش مجاهد الدين أيبك الدويدار ، وكان عسكراً في غاية القلة فالتقوا بالجانب الغربي من بغداد قريباً من البلد . فكانت الغلبة في أول الأمر لعسكر الخليفة ، ثم كانت الكرة للعسكر السلطاني فأبادوهم قتلاً وأسراً وأعانهم على ذلك نهر فتحوه في طول الليل فكثرت الوحول في طريق المنهزمين فلم ينج منهم الا من رمى نفسه في الماء أو من دخل البرية ومضى على وجهه الى الشام . ونجا الدويدار في جميعة من عسكره ووصل الى بغداد » . وقد أشار ابن الطقطقي في موطن آخر نقلاً عن ابن أيدمر الذي شهد المعركة نفسها قال : « حدثني فلك الدين محمد بن أيدمر قال كنت في عسكر الدويدار الصغير لما خرج الى لقاء التتر بالجانب الغربي من مدينة السلام في واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة قال فالتقينا بنهر بشير من أعمال دجيل فكان الفارس منا يخرج الى المبارزة وتحته فرس عربي وعليه سلاح تام كأنه وفرسه الجبل العظيم ثم يخرج اليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار وفي يده رمح كأنه المغزل وليس عليه كسوة ولا سلاح فيضحك منه كل من رآه ثم ما تم النهار حتى كانت لهم الكرة فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر ثم كان من الأمر ما كان » .

ومن غريب المصادفات أن معركة مصعب بن الزبير مع عبد الملك بن مروان كانت قد وقعت

في نفس موضع وقعة المغول المتقدمة قبل زهاء ستمائة عام ، وهي المعركة التي لقي فيها مصعب بن الزبير حتفه . ويلاحظ أيضاً أن معركة البرسقي مع دبيس بن صدقة صاحب الحلة في سنة ٥١٦ هـ كانت قد وقعت في جوار الموضع نفسه إذ ذكر ابن الأثير أن « البرسقي أرسل الى الموصل وأحضر عساكره وسار إلى الحلة وأقبل دبيس نحوه فالتقوا عند نهر بشير شرقي الفرات واقتتلوا فانهزم عسكر البرسقي » .

أحمد سوسه